ماذا فعلتْ "رابعة" بالمصريين؟

الثلاثاء 18 أغسطس 2026 10:00 م

كتب: محمد طلبة

محمد طلبة

رضوان كاتب صحافي

يقول المثل العربي: "الدم لا ينام، ولا ينسى، ولا يجفّ حتى يُقضى فيه". ومن وصية صلاح الدين الأيوبي لابنه: "وأحذّرك من الدماء، والدخول فيها، والتقلّد لها، فإنّ الدم لا ينام."

كانت مذبحة ميدان رابعة العدوية في القاهرة امتدادًا لخطّ بدأ مع ثورة يناير (2011) نفسها، ومع شهدائها وشهداء ماسبيرو وشارع محمّد محمود والاتحادية... وجاءت "رابعة" محطّةً مفصليةً، نهاية مسار وبداية لآخر. ولو عدنا إلى هذه المذابح كلّها، وراجعنا مواقفنا وكتاباتنا وبياناتنا، وتواطؤاتنا بالصمت والتفويت وتأجيل القضاء، أفرادًا وتيّارات وأحزابًا وجماعات، لفهمنا لماذا مرّت "رابعة"، كما مرّ غيرها. ولفهمنا أكثر أنّ مذابح ما قبل "رابعة" كانت مقدّماتها كما أنّ "رابعة" نفسها، والتهاون في حقّ دمائها، كانا بداية مرحلة كاملة من التفويض بالحكم وفق "منطق المذبحة."

تحوّلت مذبحة رابعة إلى سياسات حكم، إلى خطّة عمل. وتحوّل التفويض فيها إلى فكّ الارتباط الأخلاقي الذي يسمح بفعل كلّ شيء وأيّ شيء. فأيّ شيء أكثر جرمًا من القتل من دون حساب؟ تخريب الاقتصاد؟ موت السياسة؟ بيع التراب الوطني؟ لا شيء أكثر جرمًا من قتل الإنسان نفسه.

في كتابه "العنف... نظرية ميكروسوسيولوجية"، يشير عالم الاجتماع الأميركي راندال كولينز إلى العنف الوحشي، في سياق المظاهرات تحديدًا، بوصفه "ضربةً مسرحيةً" مباغتةً وصادمةً، تأتي بنتيجة إذا كانت حاسمةً ودراماتيكيةً. فالأثر لا يتحدّد بحجم الخسائر وحده، وإنّما بصورة الحشد وهو يتفكّك تحت وطأة الرعب، وما تخلقه من واقع اجتماعي جديد.

وهذا بالضبط ما يحدث في مصر منذ 14 أغسطس 2013 إلى يومنا هذا. أنتجت المذبحة نظام المذبحة، وسياسات المذبحة، واقتصاد المذبحة، وأمن المذبحة، وإعلام المذبحة. وأنتجت هذه الآليات موت السياسة وتخريب الاقتصاد، ومن ثمّ أنتجت خوفًا ورعبًا وفقرًا مهينًا وتمييزًا طبقيًا وعنصريًا وعرقيًا بغيضًا، فتحوّل كلّ خلاف إلى سبب للقتل، وكلّ احتكاك إلى سبب للعراك والشتيمة والزعيق، وكلّ مناقشة إلى سبب لـ"منشن" وزارة الداخلية، وكلّ مواطن إلى جحيم لغيره.

في كتابه "العنف... تأمّلات في وباء قومي"، يشير الطبيب النفسي الأميركي جيمس جيليجان إلى الشعور بـ"العار الجماعي" أحد أهمّ أسباب العنف، ويربطه ببنى اجتماعية تنتجه بانتظام، مثل الفقر المهين، والتمييز الطبقي أو العرقي، وإذلال السلطة المتكرّر للمحكومين، وحرمانهم من أصواتهم، من صرخاتهم، من اعتراضاتهم. من هنا يأتي العنف تنفيسًا عن عار متراكم لا يجد منفذًا للكلام عنه.

كانت مذبحة رابعة الفعل المُؤسِّس للجمهورية الجديدة، وكان السكوت عنها هو اللافعل المُؤسِّس للحقبة الجديدة: انكسر المواطن

المتفرّج امام نفسه في "رابعة" من دون ان يكون قادرًا على المطالبة بالحساب، لانّ رفض المذبحة خيانة، ثمّ انكسـر امام اولاده والتزاماته وهو أيضًا غير قادر على المطالبـة، لأنّ التذمّر خيانة. وحين انفجر وفضّل خيانتهم على خيانة نفسه كان مصـيره السـجون والمعتقلات، حيث يموت في اليوم الواحـد ألف مرّة، ولأـنّ الانفجـار يحـدُث لاـ إراديًّا، انفجر العاديون في مَن هم دون سـلطة المذبحـة، انفجر الأقوى في وجه الأضعف، وبرّر الأضعف للأقوى.

قتل الزوجُ زوجته من أجل خلاف، وقتل الصديق صديقه من أجل ضائقة، وقتل الشاب نفسه لأنّه لا يجدها، وامتلأت صـفحات مواقع التواصل بتعليقـات تـدافع عن القتلـة وتحمّل المقتولَ المسؤوليـة. فالقاتل يعبّر عما في داخل كلّ منّا، أمّا المقتول فهو الأضـعف الـذي يـذكّرنا بعارنا الاجتماعي. وكما هو معلوم من سـياسات المذبحة بالضـرورة، كلّ خطأ يسـتوجب القتل، والأضعف دائمًا هو المسؤول، حتّى وصل الأمر إلى تحميل الفقراء مسؤولية موت أطفالهم وهم يطاردون خبز يومهم: ماتوا لأنّهم فقراء، وافتقروا لأنّهم ينجبون كثيرًا.

في عام 2013، قال عبد الفتّاح السيسـي (كما كشف تسـريب شـهير) إنّ "الضابط أحمد" لو أطلق الغاز والخرطوش على المتظاهرين فلن يُحاسب. ومن يومها يقتل الضابط أحمد من دون حساب، ولا أرى أملًا في اسـتعادة هذا البلد لمسـتقبله سوى في محاكمة الضابط أحمد، هو ومن وعده بأنّه لن يُحاسب. فالدم لا ينام، ولا يُنسى، ولا يجفّ حتّى يُقضى فيه.

تقارير

خصم 50% على مونوريل شرق النيل يكشف أزمة التسعير وضعف إقبال محدودي الدخل
الجمعة 22 مايو 2026 06:30 م

تقارير

استغاثة عاجلة لإنقاذ حياة الدكتورة شيرين شوقي المعتقلة بسجن العاشر من رمضان
الأربعاء 15 أبريل 2026 11:00 م

مقالات متعلقة

ةيكريملأا ةيداصتقلاا تابوقعلا طوسو "ميعزلا" بمارت

ترامب "الزعيم" وسوط العقوبات الاقتصادية الأميركية

ريّغت يذلا ام ..نيسيئرو نيقافتا نيب يراريلإا يوونلا جمانربلا؟

البرنامج النووي الإيراني بين اتفاقين ورئيسين.. ما الذي تغيّر؟

ةيكريملا ةبورعلا مذه

هذه العروبة الأميركية

دقنلا قودنص ةهجاوم يف رصم ةحلسأ

أسلحة مصر في مواجهة صندوق النقد

إشترك
ادخل بريدك الإلكتروني
جميع الحقوق محفوظة لموقع نافذة مصر 2026 ©